﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[الأنبياء: 87 - 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من الإجمالِ إلى التَّفصيل في أنواعِ البلاء والصَّبر عليه

لَمّا ذكرَتِ الآيات السّابقةُ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ، وما كان منهم من الصَّبر على البلاء والثَّبات عليه، بما ذُكر تفصيلًا، كما في قصَّة أيّوب ﷺ، وبما ذُكِر إجمالًا، كما في الإشارةِ إلى إسماعيل وإدريس وذي الكفل، وما أنعمَ عليهم بإدخالهمْ في رحمتهِ؛ أتبعَ هؤلاءِ بمنْ هوَ أغربُ حالًا منهمْ في الحفظِ والرّعايةِ، فذكرَ ذا النّونِ الَّذي كانَ منْ حكمتِهِ تعالى أن يعاتبه حتّى ألقى نفسَهُ في البحرِ مستسلمًا؛ فالتقمَهُ الحوتُ، فنادى في الظُّلماتِ مُسبِّحًا مستغفرًا، فكانَ الحقُّ سبحانَهُ عندَ ظنِّ عبدِه بهِ، فأنجاهُ اللّهُ، وبمثلِ تلكَ التَّنجيةِ العظيمةِ ينجي المؤمنينَ من خلقِهِ[1]، فهو انتقالٌ في ذكرِ أحوالِ المقرَّبين، وما فيه من بيانِ العنايةِ والرِّعايةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: مركَّبٌ إضافيٌّ من (ذا) بمعنى الصّاحبِ، والنّونُ معناه في هذا السياق الحوتُ، ويُفرَّق بينَه وبين كونهِ مِنْ حروفِ المعجمِ في رسمِهِ؛ فإنْ رُسِمَ منفردًا (ن) فهو حرفُ المعجمِ، وإن رُسِمَ كما يُنطقُ (نون)؛ فمعناهُ الحوتُ، ويُجمعُ على (نينان)، ويُطلقُ النّونُ على ما كانَ مجوَّفًا، أوْ غوصٌ إلى الدّاخلِ، و(ذو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 266 - 267.

النّون) لقبٌ أطلقه الله تعالى على يونسَ ﷺ الَّذي ابتلعه الحوتُ، وأنجاه الله تعالى منه بتسبيحه واستغفاره.

2) ﴿نَّقۡدِرَ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على نهايةِ الشَّيءِ وكنهِهِ ومبلغِهِ، ومنهُ القدَرُ، وهوَ القضاءُ الموافقُ، فإذا وافقَ شيءٌ شيئًا؛ قيلَ: إنَّهُ جاءَ على قدره، ومنهُ القدرةُ، ومنْ معانيهِ ما يقدِّرهُ اللّهُ على عبادهِ من القضاءِ، وقدرةُ الحقِّ سبحانَهُ على خلقهِ أنْ يأتيَهمْ بالمبلغِ الَّذي يريدُهُ لهمْ، فمعانيه هيَ القيسُ والتَّدبيرُ والضَّبطُ والقدرةُ[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ ينحصرُ في أمرين: الأولُ التَّضييقُ على مسلكه في الخروجِ، والثّاني من القدرِ، فإنَّ يونسَ ﷺ لَمّا أحسنَ الظَّنَّ بمولاه قدَّرَ ألّا يقضيَ عليه من العقوبةِ[2].

3) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جذرهُ اللغويُّ (ظلم)، ومفردُه الظُّلمةُ، وهي خلافُ النّورِ أو ذهابُه، ومنهُ ظلامُ اللَّيلِ، والجامعُ بينَ وضعِ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ وظلامِ اللَّيلِ عدمُ الإبصارِ، وهو دليلٌ على ذلكَ الوضعِ، والظُّلماتُ قدْ تكونُ بمعنى الكفرِ، وقدْ تكونُ بمعنى الأهوالِ، فضلًا عنِ الظُّلمةِ بعينِها[3]، كما هو في الآية؛ إذ المقصودُ ظلمةُ الليلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الحوتِ الَّذي التقمَهُ، وعلى ذلكَ أجمعَ المفسرونَ، وزادَ بعضُهم ظلمةَ الحوتِ الَّذي ابتلعَ حوتًا آخرَ[4].

4) ﴿ٱلۡغَمِّۚ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مضعَّفٌ، واحدُ الغمومِ، جذرهُ (غمم)، ومعنى الغمِّ عدمُ الاهتداءِ، وما كانَ مِنْ شدائدِ الدَّهرِ، ومن معانيهِ الكربُ والضّيقُ والهمُّ، والأصلُ في الغينِ والميمِ دلالتُه على التَّغطيةِ والإطباقِ، ومنهُ غمَّهُ الأمرُ؛ إذا غشيهُ شيءٌ على قلبِهِ، وما كانَ ساترًا يسمّى الغمَّ، ويطلقُ الغمُّ على الحزنِ؛ لأنَّهُ يغطي السُّرورَ والحلمَ[5]، ومعنى الغمِّ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ الغمُّ الماديُّ السّاترُ: وهو بطنُ الحوتِ، والغمُّ

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، والعسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).

(2) البلنسي، تفسير مبهمات القرآن: 2/ 220.

(3) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والعسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).

(4) العزّ بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/ 335.

(5) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (غمم).

المعنويُّ الحاجبُ: وهو مخالفتُهُ ﷺ أمرَ ربِّهِ بالخروجِ من قومِهِ من غيرِ إذنٍ منه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنوُّع في الصَّبر رافدٌ من روافد التَّعليم ومصدرٌ من مصادر التَّأديب

تُخاطب الآيةُ محمَّدًا ﷺ بأن يذكر يونسَ ﷺ في حالِ الغضبِ الَّتي كانَ عليها؛ إذْ خرجَ منْ قومِهِ بعد ما برِمَ بقومِهِ، فقدْ ظلَّ يدعوهم إلى اللهِ، ويذكِّرُهمْ به، فلمْ ينتفعوا، وأقاموا على كفرِهم، فراغمَهم مجتهدًا ظانًّا جوازَ ذلكَ من غيرِ إذنٍ، وأنَّه لم يفعلْهُ إلّا غضبًا للمولى سبحانَهُ، وأنفةً للدّينِ، وبغضًا للكافرينَ، فابتلِيَ أن التقمَهُ الحوتُ، فدعا اللّهَ أنْ ينجّيهُ، فأنجاهُ اللّهُ بمدعاةِ إقرارِهِ على نفسِهِ بالظُّلمِ[2]، ومثلُ ذلك يفعلُ الحقُّ سبحانَه مع عبادِه المؤمنين الموحِّدين في تنجيتِهم من الرزايا والمحنِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

التَّنبيهُ على خصائص النَّبيّين بالعطفِ

خصَّ اللّهُ تعالى يونس ﷺ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ عطفًا على ما سبقَ من جملةِ الأنبياءِ والصّالحين؛ لما في قصَّتِه من مظاهرِ الالتجاءِ إلى اللهِ تعالى، والنَّدمِ على ما بدرَ منه من الجزعِ، وبيانِ استجابةِ الحقِّ سبحانَه له[3]، والمعطوف عليه هو أيّوبُ ﷺ، فهو على تقديرِ محذوفٍ، أي: (واذكرْ ذا النّونِ)[4]، مثلَما قدَّرَهُ معَ أيّوبَ ﷺ، ومَن جاءَ بعدَه فيما مرَّ من آياتٍ.

نكتةُ ذكرِ اللَّقبِ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ دونَ الاسمِ (يونس):

التَّعريفُ بالمقصودِ والتَّنويهُ بشأن صبرِه

لّمّا كانَ نبيُّ اللهِ يونسُ بن متّى ﷺ قد لازمَ بطنَ الحوتِ حبيسًا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غمم).
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 133 - 134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130.
(4) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 402.

مدَّةً من الزَّمنِ بعدَ أن ابتلعَهُ الحوتُ؛ وصفَهُ الحقُّ سبحانَه بـ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ومعناه: صاحبُ الحوتِ اشتقاقًا من فعلِهِ، وما كانَ عليه أمرُهُ[1]، ونكتةُ اختيارِ اللَّقب هنا دون الاسم؛ لما أنَّ القصَّة في التَّنويه بشأنِ صبره والتجائه إلى الله سبحانه وتعالى، وهو في بطنِ الحوت، فكان اللَّقبُ دالًّا على أمرين: التَّعريفِ بالمقصود - وهو يونس عليه السلام - والتَّنويهِ بشأنه فيما اختصَّ به من الصَّبر في بطنِ الحوت.

دلالةُ الظَّرفِ (إذْ) في صدرِ الآيةِ:

مـدارُ الأمـرِ في شـأنِ المغاضبةِ ومـا نشأ عنها مـن إنـسـاءِ الدَّعوة

اقترنَ الظَّرفُ (إذْ) بذكرِ يونسَ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾؛ لأنَّه ليسَ القصدُ الإشارةَ إلى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ مجرَّدًا، بل القصدُ حالُه عليه السلام وقتَ ذهابِه[2] مغاضبًا بعد أن صدَّ عنه قومُهُ أوَّلَ الأمرِ، وإنَّما في ذكرِه أوَّلًا التَّشويق إلى ما سيردُ عنه ثانيًا من الظَّرفِ الدّالِ على الغضبِ الصّادرِ منه، فالعبرةُ في القصَّةِ كامنةٌ في هذا الوقتِ الَّذي ذهب فيه مغاضبًا؛ إذ عليها مدارُ الأمر.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الذَّهابِ دون مرادفاتِها:

ذهـابُ يـونـس عليه السلام بـحـالِ المـغـاضـبـةِ وعودته بغيرِها

استعمل النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الذَّهابِ في قولِه تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لاختصاصِ الذَّهابِ بعدمِ العودةِ مطلقًا أو بالعودةِ مع تغيُّرِ الحال كلِّيًّا، وهذا حالُ يونسَ عليه السلام، فقد ذهب بالحالِ الَّتي كان عليها، وهي المغاضبةُ، ثمَّ عاد بحالٍ أخرى كليًّا.

سرُّ استعمالِ مادَّةِ الغضبِ في ﴿مُغَٰضِبًا﴾:

المغاضبةُ مغالبةٌ للمبالغةِ وفيه معنى الغرابةِ

اختيرَتْ مفردةُ ﴿مُغَٰضِبًا﴾، وهي بمعنى: "مراغمًا لقومه لمّا برِمَ من طول دعوتِهِ إيّاهم وشدَّةِ شكيمتهم، وتمادي إصرارِهم مهاجرًا عنهم قبل أن يؤمرَ، وقيل: وعدَهم بالعذاب، فلم يأتِهم ليعادهم بتوبتهم، ولم يعرفِ الحال، فظنَّ أنَّهُ كذَبَهُم؛ فغضِب من ذلك، وهو

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 369.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 571.

من بناء المغالبة للمبالغة؛ أو لأنَّه أغضبَهُم بالمهاجَرة لخوفهم لحوق العذاب عندها"[1]، وفي هذه المفردةِ معنى الغرابةِ، ووجهُ الغرابةِ: أنَّهُ لَمّا أوحى إليهِ الحقُّ سبحانَهُ أنَّ العذابَ نازلٌ بقومِهِ بعدَ مدَّةٍ، فلمّا دنتِ المدَّةُ، وأشرفَتْ على الانقضاءِ؛ عندها خرجَ غضبانَ لعدمِ تحقُّقِ ما أُنذروا بهِ من العذابِ، فهوَ غضبٌ يتَّصفُ بصفةِ الغرابةِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفاعلةِ ﴿مُغَٰضِبًا﴾:

المغاضبةُ الصّادرةُ منْ يونسَ ﷺ مغالبةٌ دالَّةٌ على المبالغةِ[3]، كما أنَّها مؤذنةٌ بصدورِ الغضبِ من الطَّرفين من يونسَ ﷺ، ومن أهلِ نينوى الَّذين أُرسلَ إليهم، فأبوا أن يؤمنوا[4]، ويجوزُ أن يكونَ التَّشبيهُ مرادًا به، أي: إنَّهُ خرجَ على هيئةِ المغاضبِ[5]، بعدَ ما برِمَ بقومِهِ من طولِ تذكيرِهم، فَلم يَزِدْهم ذلكَ إلّا صدودًا عن دعوتِه، والمغاضِبُ اسمُ فاعلٍ من الفعلِ (غاضَبَ)، وهوَ فعلٌ يدلُّ غالبًا على صدورِ الفعلِ من اثنينِ، نحو قاتلتُهُ، ولكنَّهُ يجوزُ أنْ يكونَ صادرًا منْ واحدٍ نحو (عاقبتُ اللِّصَّ، وعافاهُ اللّهُ)، فيكونُ ﴿مُغَٰضِبًا﴾ هنا من هذا البابِ[6].

المغاضبةُ دالَّةٌ على صدورِ الفعلِ عن يونسَ بسببِ قومِه

فائدةُ العطفِ بحرفِ الفاءِ دونَ الواوِ:

يُلحَظُ استعمالُ الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، دون استعمالِ الواو بجامعِ العطفِ؛ لما يرادُ من معنى التَّفريع[7] الَّذي تعبِّرُ عنه الفاءُ، وليسَ كذلك مع الواوِ، فالفاءُ هنا تفريعُ خطورةِ هذا الظَّنِّ في نفسِهِ، بعدَ أنْ كانَ الخروجُ منهُ بادرةً بدافعِ الغضبِ عن غيرِ تأمُّلٍ في لوازمِه وعواقبِه، قالوا: وكانَ في طبعِهِ ضيقُ الصَّدرِ[8].

الظَّنُّ متفرِّعٌ بعدَ الخروجِ بدافعِ الغضبِ وليس أصلَ الخروجِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130 - 131.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(6) الأصبهاني، إعراب القرآن، ص: 242.
(7) الفاء التفريعيَّة هي الَّتي تربط جملتين: الجملة الأولى علّة لما بعدها، وما بعدها فرع عنها، ينظر: الصّبّان، حاشيته على الأشموني: 3/ 142.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.

سرُّ استعمالِ مفردةِ الظنِّ:

الـظَّـنُّ تـقـلُّـبُ الفكرِ في مسألةٍ يُحيطُ بها الهمُّ

استعملَتِ الآية الكريمةُ فعلَ الظَّنِّ الصّادرَ عن يونسَ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، دون أن يُقال: (فعلم)؛ وذلك لما يدلُّ عليه الظَّنُّ من جولان الفكرِ فيما يتعلَّق بالمسألةِ المظنونِ بها، وأُتي به ماضيًا لبيانِ أنَّ هذا الظَّنَّ قد تمكَّن منه، ويُشير إلى أنَّ الحقَّ سبحانَهُ لمْ يأذنْ ليونسَ ﷺ بمثلِ ذلكَ الخروجِ، فجرى في خلدِه أنَّهُ إن ابتعدَ عنْ هذهِ المدينةِ الَّتي أُرسلَ إليها بعثَ اللّهُ تعالى غيرَهُ إليها[1]، ويجوزُ أنَّه في ظنِّهِ ذاك إنَّما يجري بحسبِ الأسبابِ المعتادةِ في هجرتِه من دارِ قومِه، ولم يظنَّ أنَّ الحقَّ سبحانَه سيمنعه عن ذلك بقدرتِه وحسنِ تدبيرِه، فإنَّه لم يوحَ إليه من اللّهِ بهذا الفعلِ[2]، فالأنبياءُ محكومون بوحيهِ سبحانَه، وليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ.

توجيهُ النَّبرِ بالاستفهامِ:

يحتملُ فعلُ الظَّنِّ تقديرَ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ ليكونَ المعنى: (أفظنَّ أن لن نقدرَ عليه؟) وهو استفهامٌ يرادُ منه التَّوبيخُ[3]، وهو ما يتلاءمُ مع السّياقِ.

نوعُ ﴿أَن﴾ وتعيينُ اسمِها وخبرِها:

الشَّأنُ أنَّ الحقَّ سبحانَه لن يوقعَ العقوبةَ عليهِ

﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ (أنَّ) الدّالَّةِ على التَّوكيدِ، على تقديرِ (أنه)؛ فيكونُ اسمُها ضميرَ الشَّأنِ محذوفًا[4]، وخبرُها ما بعدَها من جملةِ نفي القدرةِ، والمعنى: (ظنَّ يونسُ ﷺ أنَّ الأمرَ والشَّأنَ أنَّ الحقَّ سبحانَه لن يرتّبَ له من الأقدار ما تضيق به الحال).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 181.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 506.

دلالةُ ﴿أَن﴾ في السّياق:

حسنُ ظنِّ العبدِ باللهِ تعالى لا ينفي المؤاخذة

وفي التَّعبيرِ بأداةِ ﴿أَن﴾ - مع نفي التَّضييق أو تقدير العقوبةِ على مؤاخذتِهِ ﷺ - ملمحٌ دلاليٌّ، فالحرفُ ﴿أَن﴾ دالٌّ على التَّوكيد، توكيدِ ظنِّ يونسَ ﷺ بأنَّ اللّهَ تعالى لن يقدِّرَ عليه العقوبةَ، وهو ظنٌّ في محلِّهِ وموضعِهِ في نفسِ ذي النّون، وآيةُ ذلك أنَّ الحقَّ سبحانَه قد استجابَ له.

غرضُ استعمال أداة النَّفي ﴿لَّن﴾:

استعملَ النَّظمُ أداة النَّفي ﴿لَّن﴾ لتأكيدِ نفي ما ظنَّهُ يونسُ ﷺ في عدمِ إيقاعِ العقوبةِ في المستقبل.

نكتةُ استعمالِ الفعلِ ﴿نَّقۡدِرَ﴾:

تعـدُّدُ المعاني وتنوُّع الدَّلالات بسطٌ واتساع

استعملتِ الآية مفردة ﴿نَّقۡدِرَ﴾، والمرادُ بها التَّضييقُ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرَّعد: 26]، فالتَّضييقُ يُقابل البسط، ونكتةُ استعمال هذه المفردة احتمالها لمعانٍ عدَّة، أي: ظنَّ أن لن نضيِّقَ عليه بأن يقيمَ مع القومِ الَّذين أرسلَ إليهم حتمًا، أو أن يقومَ بتبليغِ الرِّسالةِ حتمًا، وأنَّهُ لو خرجَ من ذلك المكانِ لسقطَ تكليفُ التَّبليغِ عنه، وهو ما اجتهدَ فيه، فبنى عليه ظنَّهُ، وكانَ أن نزلَ في شأنِه ما نزلَ؛ فكانَ الأَوْلى أن يستعلمَ من ربِّهِ ما يريدُ فعلَهُ قبل الإقدامِ عليه[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيةِ في قولِه: ﴿نَّقۡدِرَ﴾:

قـراءةُ البناء للفاعل كشفت إجمال قراءة البناء للمفعول

قَرَأَ يَعْقوبُ بالياءِ مَضْمومَةً وَفَتْحِ الدّالِ ﴿يُقْدَرَ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بالنّونِ مَفْتوحَةً وكَسْرِ الدّالِ ﴿نَّقۡدِرَ﴾[2]، فحجّة من قرأ بنون العظمة رجوعُها إلى الذات العلية، والمفعولُ محذوفٌ تقديره (نقدر الأقدار والأحوال عليه) من قولهم: (قَدَرْت على فلان): إذا ضيَّقت عليه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 324.

وحجة من قرأ بالياء والبناء للمفعول أن الفاعل معلوم، وفي عدم ذكره تشويق للسامع للسؤال عنه[1]، والمفعول به محذوف على القراءتين، وفي قراءة يعقوب بلاغة المناسبة بين حذف نائب الفاعل وحذف المفعول به، وهي متماشية أيضا مع السياق بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالفعل فيها أيضا بُنِيَ لما لم يُسَمَّ فاعله على قراءة ابن عامر وشعبة.

دلالةُ الفاءِ على الكلامِ المحذوف:

طـيُّ الأحـداثِ الكثيرةِ في حرف واحد

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الفاء الفصيحةُ الَّتي تدلُّ على كلامٍ محذوف، فقد طوت في هذا السّياق كلامًا محذوفًا، تقديرُه: فابتلاه اللّه تعالى، فالتقمهُ الحوتُ، فنادى في الظُّلمات، ولم يذكر الابتلاءَ وفعلَ الالتقام، لكنَّهُ أشارَ إلى ندائِه في جوفِ الحوتِ ﴿فَنَادَىٰ﴾، فدلَّ على الالتقامِ والشِّدَّةِ والمحنةِ الَّتي كانَ عليها بأسلوبٍ موجزٍ بديعٍ[2].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ دون (ثمّ):

اختـزالُ المشهد وطـيُّ الـزَّمـن لـبـيـانِ سرعـة النِّداء

من ناحية أخرى، يشيرُ استعمالُ الفاء دون (ثمَّ) إلى سرعة وقوعِ الفعل منه ﷺ، فعلى الرَّغم من الكلام المحذوفِ الَّذي دلَّ عليه السّياق، فالفاء دلَّت أيضًا على سرعة مناداةِ يونس لربِّهِ، وسرعة تضرُّعِهِ في بطن الحوتِ، كأنَّهُ ذهب فنادى.

السَّمةُ التَّعبيريةُ لاستعمالِ مفردةِ النِّداءِ:

النِّـــداءُ هـو الأنـســبُ في ظـلـمات البحرِ والحوتِ والليلِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ مفردةِ النِّداءِ دونَ الدُّعاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنَّ النِّداء جاءَ متضمِّنًا معنى القول، فلم يحتجْ إلى الجارِّ في قولِه: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[3]، أمّا الدُّعاءُ؛ فهو دعاءُ العبدِ ربَّهُ، وقربَه منه، ولمّا كانَ يونسُ ﷺ قد صدرَ منه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 514، السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 190.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4909.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 574.

النِّداء في بطن الحوت كان هو الأنسبَ، لما فيه من الخوف والبُعد والظُّلمةِ، فالواقع يدلُّ على أنَّه كان يُنادي نداءَ الغريقِ المستجير.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

ظلماتٌ متكاثفةٌ شديدةٌ أحاطت به من كلِّ جانبٍ

يُشيرُ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إلى أنَّ الظُّلماتِ قد أحاطَتْ به من كلِّ جانبٍ، فكانت ظلمةً شديدةً متكاثفةً في بطنِ الحوتِ في قاعِ البحرِ في اللَّيلِ، فحصلت ظلماتُ الحوتِ والبحرِ واللَّيلِ[1]، فهي ظلماتٌ محدقةٌ به من جميعِ الجوانبِ، وكانت ظرفًا له، وهو في جوفِها يُنادي للخلاصِ.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

تمكُّنُ الظُّلماتِ من كلِّ جانبٍ تدلُّ عليها صيغةُ الجمعِ

جاء لفظُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعًا لا مفردًا (الظّلام) في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنَّه قصدَ الجمعَ حقيقةً، فإنَّ يونسَ ﷺ دعا ربَّهُ، وقد أحاطت به أنواعٌ من الظُّلماتِ المخيفة: ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمةُ قعرِ البحرِ، وظلمةُ بطنِ الحوتِ[2]، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للمبالغةِ في شدَّةِ الظُّلمةِ، كالواردِ في قولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257][3]؛ فشدَّةُ الظَّلامِ يحصلُ من تظاهرِ الظُّلماتِ المتعدِّدةِ.

ويجوزُ أن يكون التَّعبيرُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعًا مبالغةً في تصوير يونس ﷺ، وقد انغمس في الظلام الدّامس الشَّديد المُغطش، أي: إنَّ استعمالَ الجمع هو للمبالغة.

نوعُ ﴿أَن﴾ ودلالتها:

النِّداءُ بكلمةِ التَّوحيدِ لفظًا أو تفسيرًا

أداة ﴿أَن﴾ – في قوله تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ – مخفَّفةٌ من (أنَّ) الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، والتَّقدير: (بأنَّه لا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 12/ 466.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.

إلهَ إلّا أنتَ)؛ ويجوزُ أنْ يكونَ معناها مبنيًّا على التَّفسيرِ، والتَّقديرِ: (أيْ: لا إلهَ إلّا أنتَ)[1]، فيكونُ يونسُ ﷺ قد نادى بكلمةِ التَّوحيدِ لفظًا، أو تكونُ تفسيرًا لكلامِه.

بلاغةُ إيثارِ الخطابِ بدلًا من الغيبة:

في القربِ مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ بحالِ المكروبِ

في ذكرِ ضميرِ الخطابِ المعظّم ﴿أَنتَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ لبيانِ أنَّ النِّداء كان بالخطابِ لا بالغيبةِ، وأنَّ النِّداءَ قد بلغ مبلغًا عاليًا من الالتجاءِ، وغايتُه إظهارُ تقرُّبِ يونسَ ﷺ من ربِّهِ، فالمخاطَبُ قريبٌ، وفي القربِ مزيدٌ من اللُّطفِ والعنايةِ المرجوّيْن، وهو في حالِ الكربِ والشِّدَّةِ.

فائدةُ إضافةِ الاسمِ الظّاهرِ إلى الضَّميرِ

أُضيفَ المصدر (سُبحان) إلى كاف الخطابِ الَّذي يعود على الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ بيانِ لطفِه تعالى وقربِه؛ لأنَّ المخاطبَ قريبٌ، وفي القُربِ مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ.

غرضُ ذكرِ التَّنزيهِ بعدَ التَّوحيدِ:

لمّا نزَّهَهُ عن الشَّريكِ تهليلًا؛ عمَّ فنزَّهَهُ عن كلِّ نقصٍ تسبيحًا

ذكر يونسُ ﷺ تنزيهَ اللّه تعالى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ بعد التَّوحيدِ في قولِه تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ كنايةً عن انفرادِ الحقِّ سبحانَه بالتَّدبيرِ، وكنايةً عن قدرتِه تعالى على كلِّ شيءٍ[2].

وكانَ من شأنِ نبيِّ اللّهِ يونسَ ﷺ أن نزَّهَ الحقَّ سبحانَه عن الشَّريكِ بقولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثمّ عمَّ بعدَ ذلكَ بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ منزِّهًا إيّاه عن كلِّ نقصٍ، فإنَّهُ لا يقدرُ على أن ينجيه ممّا هو فيه إلّا اللّه[3]؛ فهو من بابِ تقديمِ التَّنزيهِ الخاصِّ على التَّنزيهِ العامِّ.

ومن شرائطِ الالتجاءِ إلى الحقِّ سبحانَه، ودعاءِ العبدِ إيّاه أن يقدِّمَ بين يدي ذلك التَّوحيدَ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثمَّ يثنّي بالتَّسبيحِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.

والثَّناءِ والتَّنزيهِ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، ثمّ يُثَلِّثَ بالاعترافِ وطلبِ المغفرةِ والاعتذارِ ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، فلمّا كانَ هذا فعلَ يونسَ ﷺ؛ استُجيبَ له.

دلالةُ جملةِ التَّهليلِ والتَّسبيحِ:

ولجملتي التَّهليلِ والتَّسبيحِ دلالةٌ ظاهرةٌ في أنَّهما تُجلّيانِ الهمومَ والغمومَ، وتنجيانِ من الكروبِ والمصائبِ، فحقيقٌ بالمؤمنِ أنْ تكونا ملجأً له عندَ اشتدادِ الخطوبِ، وأنْ تكونا مطيَّةً في رخائِهِ ثقةً بما وعدَ الحقُّ سبحانَهُ عبادَهُ المؤمنينَ من إلحاقِهم بذي النّونِ في استجابتِهِ لهُ ولهمْ[2].

التَّهليلُ والتَّسبيحُ يجلّيان الغمومَ ويُنجيان من الهمومِ

بلاغةُ جملةِ التَّعليلِ:

إنَّ يونسَ ﷺ عبَّرَ عن التجائه إلى اللّه تعالى بعد أن خرج من قومِه من دونِ إذنِهِ سبحانَه، فدلَّ قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الاعترافِ، كأنَّه قال: (أنا الآنَ من التّائبين المنيبين النّادمين، فهلّا كشفتَ عنّي محنتي)[3].

الاعترافُ بالظُّلمِ مفتاحُ التَّوبةِ الصَّدوقِ

نكتةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي ﴿كُنتُ﴾:

لمّا كانَ نداؤهُ ﷺ توبةً صدرتْ منه اعترافًا بتقصيرِه، أو تعجُّلِهِ بما اتَّخذَ من قرارٍ، أو خطأ اجتهادِه؛ أسندَ إلى نفسِه فعلَ الكونِ الماضي بقولِه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الدّالِّ على رسوخِ الوصفِ فيه؛ للمبالغةِ في الاعترافِ بأنَّه قد ظلمَ نفسَه ظلمًا كبيرًا[4]، ومبالغةً في هضمِ نفسه، فكلَّما زاد الاعترافُ بالذَّنبِ؛ زاد القربُ من التَّوبةِ.

المبالغةُ في الاعترافِ مبالغةٌ في الالتجاءِ

فبعدَ أن نزَّهَ اللّهَ تعالى تهليلًا وتسبيحًا؛ أفصحَ طالبًا الخلاصَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 2/ 311.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 181.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.

ممّا هو فيه، فنسبَ النَّقصَ إلى نفسِه بقولِه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: (كنتُ كَوْنًا كبيرًا)[1].

نكتةُ التَّعبير بالجمعِ دونَ الإفرادِ:

لم يقل يونس عليه السلام: (إني كنتُ ظالمًا)، بل عدلَ عن ذلك إلى التَّعبيرِ بالجمعِ، فقال: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فجعلَ نفسَه واحدًا من فريقِ الظّالمين[2]، ولما يفيضُ به هذا التَّعبيرُ من النَّدم والحسرة.

دلالةُ العطفِ بالفاءِ:

عند الاعتراف بالذَّنبِ تتجلَّى الاستجابةُ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ للسَّببيَّةِ؛ فإنَّ يونسَ عليه السلام لمّا اعترفَ بذنبِه في خروجِه من قومِه قبلَ أن يُؤذنَ له، دعا ربَّهُ أن يعفوَ عنه، كما هي شيمةُ القادرين[3]، وأن يفرِّجَ عنه ما هو فيه من كربٍ وشدَّةٍ، فكانَ أن استجابَ له الحقُّ سبحانَه بموجبِ دعائِه، فالاستجابةُ متسبِّبةٌ عن الدُّعاءِ.

وفيها أيضًا معنى التَّرتيبِ والتعقيبِ من غيرِ مهلةٍ[4]؛ للدَّلالةِ على سرعةِ الاستجابةِ، فبعدَ أنْ دعا نبيُّ اللهِ يونسُ عليه السلام بذلكَ الدُّعاءِ، واعترفَ بذنبِه، جاءتهُ الاستجابةُ منهُ تعالى على وجهِ السُّرعةِ والفورِ[5].

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في فعلِ الاستجابةِ:

جاء فعلُ الاستجابةِ مزيدًا بالسّينِ والتّاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ للتَّوكيدِ، فالاستجابةُ دالَّةٌ على إجابةِ دعاءِ يونسَ عليه السلام بعد توبتِه ممّا كانَ منه من التَّفريطِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(4) ابن جنّي، اللّمع في العربية، ص: 91.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 17/ 88.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى الضَّميرِ:

لمّا كانَ من دعاءِ يونسَ ﷺ ما كانَ، وإقراره بذنبِه؛ استجابَ له الحقُّ سبحانَه بقولِه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ بإسنادِ فعلِ الاستجابةِ للضَّميرِ (نا) العائدِ عليه سبحانَه، والمعنى: (فاستجبنا له بما لدينا من العظمةِ والجبروتِ والقدرةِ، فخلَّصناه ممّا هو فيه من الظُّلماتِ، ومن بطنِ الحوتِ، فخرجَ حيًّا سليمًا معجزةً أخرى)، فدلَّ الإسنادُ على عظيم فعلِ الاستجابة، وما آلَ إليه من الحال.

استجابةُ الله تعالى عظيمةٌ كما هو شأن العظيم

معنى اللّامِ ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾ للاستحقاقِ، وهو أحدُ معانيها المشتهرةِ في كلامِ العربِ[1]، فإنَّ يونسَ ﷺ لمّا أقرَّ بذنبِه، وأذعنَ لربِّه، وسألَهُ سؤالَ النَّجاةِ والعافيةِ، وقدَّمَ بين يديه الاعترافَ بكونِه من الظّالمين؛ ليطأ بساطَ القربِ من خالقِه ومولاه؛ كانَ مستحقًّا لاستجابةِ المولى سبحانَه لدعائِه في كشفِ الكربِ والغمِّ عنه.

استحقاقُ الاستجابةِ في تتبُّعِ سُنَنها

ومعَ أنَّ فعلَ الإجابةِ يتعدّى بنفسِه، إلّا أنَّه عدّاه باللّام في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾؛ للإيذانِ بكمالِ عنايةِ الحقِّ سبحانَه بنبيِّه يونسَ ﷺ، وترادف نعمِه تعالى عليه[2].

نكتةُ العطفِ بالواوِ لا بالفاءِ:

عُطِفَ فعلُ التَّنجيةِ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ بالواوِ لا بالفاء، كما سبقَ في قصَّةِ أيّوبَ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾؛ وذلك أنَّ أيّوبَ ﷺ دعا ربَّهُ بالخلاصِ، فاستجابَ له مرتِّبًا الاستجابةَ على الدُّعاءِ، أمّا في قصَّةِ يونسَ ﷺ فإنَّ قولَهُ: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يخرجُ

ترتيبُ الخبرِ على الخبرِ يختلف عن عطف الخبرِ على آخر

(1) الزجاجي، اللامات، ص: 65.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4909.

مخرجَ الدُّعاءِ، فذُكِرَتِ الاستجابةُ بعدَهُ[1]، عطفًا عليه باعتبارِه عَطْفَ خبرٍ على آخر، لا تَرَتُّبَ خبرٍ على آخر.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضعَّفِ:

التَّنجيةُ بالعظمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الغامرة

عبَّرَ النَّظمُ عن خلاصِ يونسَ ﷺ من بطنِ الحوتِ بالفعلِ المضعَّفِ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ دونَ الفعلِ المعدّى بالهمزةِ (أنجيناه)؛ لدلالةِ الفعلِ المضعَّفِ على المبالغةِ والتَّكثيرِ[2]، ولمّا كانَ يونسُ ﷺ في كربٍ شديدٍ، ومحنةٍ عظيمةٍ؛ احتاجَ إلى أن ينجّيَهُ تنجيةً عظيمةً بالغةً[3] تليقُ بعظمتِه تعالى، وإن كانَ الحقُّ سبحانَه لا يعجزُه شيءٌ.

نكتةُ إسنادِ فِعْلَي الاستجابةِ والنَّجاةِ إليه سبحانَه:

دلَّ إسنادُ فعلَي الاستجابةِ والتَّنجية إلى الضَّميرِ العائدِ على الحقِّ سبحانَهُ بقولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ﴾، على أنَّ الفعلين مؤكَّدان برحمتِه تعالى، محاطان بفضلِه وإنعامِه[4].

معنى حرفِ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُه:

استئصالُ الغمِّ نعمةٌ زائدةٌ على أصلِ إذهابه

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ دالٌّ على ابتداءِ الغايةِ[5]، وهو معناها في هذا السّياق، أي: (أنجيناه من أصلِ الغمِّ ومبتدئِه)؛ للإشارةِ إلى محوِ الغمِّ عن يونسَ ﷺ محوًا تامًّا كاملًا، فلا يبقى منه شيءٌ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْغَمِّ﴾:

الألفُ واللّامُ في لفظ: ﴿ٱلْغَمِّ﴾ عهديَّةٌ[6] في إشارةٍ إلى الغمِّ الَّذي

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 574.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 64 وابن عصفور، المتع الكبير في التصريف، ص: 129.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.
(5) وهو الأصل في معانيها في لسان العرب، المبرد، المقتضب: 1/ 44.
(6) اللام العهدية الداخلة على الأسماء النكرة الَّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق، يُنظر: ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 150.

ألجأهُ[1] إلى أن يكونَ على حالةٍ من الغضبِ ممّا جرى مع قومِه من صدِّهم أوَّلَ أمرِهم.

سرُّ اختيارِ لفظِ الغمِّ:

تناسبُ الغمِّ المعنوي مع الحسّيِّ

ولمّا كانَ لفظُ الغمِّ دالًّا على السِّترِ والتَّغطيةِ والإطباقِ[2] فضلًا عن عدمِ الاهتداءِ، ويطلقُ أيضًا على الحزنِ؛ فإنَّ استعمالَهُ هنا دالٌّ على لطيفةٍ تتناسبُ مع حالِ يونسَ عليه السلام، فإنَّه مع ما حلَّ به من الغمِّ المعنويِّ بخروجه دون إذن ربِّهِ سبحانه، كانَ في غمٍّ مادّيٍّ ساترٍ كونه في بطنِ الحوتِ[3]، فهو في غمٍّ مادّيٍّ ومعنويٍّ، وبالاستجابة رُفع عنه الغمّان.

بلاغةُ فنِّ التَّعريضِ:

التَّعريضُ بمشركي العربِ بتنجيةِ المؤمنين وإهلاكهم

اشتمل قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على فنِّ التَّعريضِ، وهو تعريضٌ بمشركي العربِ، فإنَّ الحقَّ سبحانَه ينجي المؤمنين ممّا يُلاقونه من الغمِّ والكربِ وسوءِ معاملةِ المشركين لهم في بلادِهم[4]، فكأنَّه يقولُ: لكم النَّجاةُ والإكرامُ - أيُّها المؤمنون - ولهم الخسرانُ وسوءُ المصيرِ.

بلاغةُ استعمالِ الكافِ:

قدرةُ اللهِ تعالى في إنجاءِ المؤمنين مطلقةٌ غير مقيَّدة

الكافُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تنجيةً أو إنجاءً مثلَ ذلك[5]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانَه قادرٌ على أن يفعلَ جميعَ الممكناتِ مثلَ فعلِه فيما تقدَّمَ من الأمورِ الغريبةِ[6] في التقامِ الحوتِ يونسَ عليه السلام، ثمَّ إنجائِه، وأنَّ أفعاله في إكرامِ أنبيائه تعمُّهم، وتسري على أتباعِهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غمّ).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 182.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.
(5) زكريا الأنصاري، إعراب القرآن العظيم: 4/ 506.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.

نكتةُ الإشارةِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

سـمـوُّ الإنـجـاءِ تُناسبهُ الإشارةُ بالبعيد

استعملَ النَّظم الكريمُ اسمَ الإشارةِ الدّالِّ على البعيدِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للإيذانِ بعظمةِ ذلك الإنجاءِ الَّذي أنجى فيه الحقُّ سبحانَه يونسَ ﷺ، أي: مثلَ ذلك الإنجاءِ نفعلُ بالمؤمنين ممّا يصيبُهم من غمومٍ وهمومٍ بحسبِ الواقعِ فيها أن تكونَ نجاتُه عسيرةً[1]، ولما كان الإنجاءُ سامي المقام رفيعَ الحال؛ حسُنتِ الإشارةُ إليه بأداةِ البعيد.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيةِ في قولِه تعالى: ﴿نُنجِي﴾:

قـراءةُ التَّخفيفِ لمـحـتِ الإنـجـاء وقـراءةُ التشديد لمحتِ التَّنجية

تعدَّدتِ القراءاتُ في قولِه تعالى: ﴿نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، حيث قرأ ابن عامرٍ وشعبةُ ﴿نُجِّي﴾ بنونٍ واحدةٍ وجيمٍ مشدَّدةٍ على إدغام إحدى النّونين تخفيفًا، وقرأ الباقون ﴿نُنجِي﴾ بنونَين بجعلِ الثّانيةِ ساكنةً والجيمِ مخففةً[2]، والوجهُ في قراءةِ ﴿نُجِّي﴾ إدغامُ النّونِ الثّانيةِ في الجيمِ، كما تدغمُ في اللّامِ والرّاءِ من مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 73]، فالأصلُ (إنْ) مع (لا).

وفيه وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ الأصلَ فيها (نُنَجّي) بفتحِ النّونِ الثّانيةِ وتشديدِ الجيمِ، فحُذِفَتِ النّون الثّانية لتوالي الأمثالِ، فصارَ ﴿نُجِّي﴾.

وأعدل الأقوال في توجيه هذه القراءة أنه جعل ﴿نُجِّي﴾ فعلًا ماضيًا لما لم يسمّ فاعله، وأرسل الياء بغير فتحٍ، وأُضمر مكان المفعول الأوّل - وهو نائب الفاعل هنا - المصدرُ (النّجاءُ) لدلالة الفعل عليه، فكأنه قال: (وكذلك نُجّي النّجاءُ المؤمنين) على رأي من يُجوّز إنابة المصدر مع وجود المفعول به[3]، وهذه القراءة هي الموافقة لرسم المصحف تحقيقًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 324.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 134.

وقد أجاز إقامة غير المفعول - من مصدر أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو مجرور - الأخفش والكوفيون وأبو عُبيد، وذلك مع وجود المفعول به، وجاء السماع في إقامة المجرور مع وجود المفعول به، فلا الْتفات لمنع البصريين لمثل هذا[1].

ووجه قراءة الجمهور أنه بنون العظمة العائدة على الذات العلية، والفاعل هو الضمير (نحن) العائد على الاسم الأجل: (اللّه)، وهي المتماشية مع سياق الأفعال في الآيات: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾، و﴿فَكَشَفْنَا﴾، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، و﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾، وهي موافقة لرسم المصحف تقديرًا.

فنُّ الجناسِ في لفظتَي ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾ و﴿نُنجِى﴾:

ألطفُ الجناسِ ما جمع ألفاظَ الإنجاءِ ودلالاتها

الجناسُ من الفنونِ البديعيةِ البلاغيَّةِ الَّذي يتوافرُ على اللَّطافةِ اللَّفظيةِ والمعنويَّةِ، "فإنَّكَ لا تستحسنُ تجانسَ اللفظتينِ إلّا إذا كانَ موقعُ معنييهما من العقلِ موقعًا حميدًا"[2]، وقد وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما ألطفَ مجيءَ الجناس في الجمعِ بين مصادر التَّنجية! ففيه إشارةٌ إلى بديعِ الوعد للمؤمنين.

فنُّ الاحتباك:

تحقيقُ التَّكاملِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ في السّياقِ

وقع احتباكٌ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بين لفظتي ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ و﴿نُنجِى﴾، فذكرَ التَّنجيةَ أوَّلًا؛ لتدلَّ على مثلِها ثانيًا، وذكرَ الإنجاء ثانيًا؛ ليدلَّ على مثلِه أوَّلًا[3]، فيتحقَّقَ التَّكاملُ المعنويُّ فضلًا عن اللَّفظي.

وسرُّ الاحتباك الإشارةُ إلى العنايةِ البالغةِ بالمؤمنين؛ فإنَّ صبرَهم ليسَ كصبرِ الأنبياءِ والرُّسلِ ﷺ؛ لما وردَ في الحديثِ (قُلتُ: يا رسولَ اللّه، أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ: الأنبياءُ، ثمَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 462.
(2) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 16.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.

الأمثلُ فالأمثلُ يُبتلى العبدُ على حسبِ دينِه)[1]، فكانَ منه تعالى أن يَسُلَّهم من الرّزايا والبلايا، كما تُسلُّ الشَّعرةُ من العجينِ في سرعةٍ ولطافةٍ وهناءٍ[2].

توجيهُ اختيارِ وصف ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

خُصَّتِ الفاصلةُ بوصف المؤمنين دونَ أوصافٍ أخرى، كالصّالحين أو المتقين أو المفلحين، وذلك لعموم هذا اللَّفظِ وشموله جميعَ الأوصافِ الأخرى، ولأنَّه القاعدة الَّتي ينشأ عنها العملُ المقبول.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّضييقُ والتَّقديرُ:

التَّقديرُ "ضبطُ الشَّيءِ القابلِ للتَّسيُّبِ أو الانبساطِ، وحكمُه وامتساكُه على وضعٍ أو كمٍّ أو مسافةٍ معيَّنةٍ، فلا يتسيَّبُ، ولا يسترسلُ"[3]، أمّا الضَّيقُ؛ فالأصلُ فيه خلافُ السَّعةِ، ويكونُ منه الفقرُ وذهابُ المالِ والبخلُ[4]، فبينَ التَّقديرِ والتَّضييقِ عمومٌ وخصوصٌ، فإنَّ التَّضييقَ جزءٌ من التَّقديرِ الَّذي قد يكونُ بمعنى التَّدبيرِ والضَّبطِ، وقد تبيَّنَ فيما نُقلَ من أقوالِ المفسِّرين أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿نَّقْدِرَ﴾ يحتملُ أن يكونَ بمعنى التَّضييقِ، ويحتملُ أن يكونَ من بابِ الاستفهام[5]، فليسَ يُستحسنُ التَّعبيرُ بالتَّضييقِ في هذا الموضعِ، والتَّقدير أوفى بالمقام.

التَّقديرُ أعمُّ والتَّضييقُ أخصُّ فبينهما عمومٌ وخصوصٌ

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه: رقم الحديث: (4022).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 97.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»